الفصل الثاني

العلاقة بين الكلام والكتابة

العلاقة بين الكلام والكتابة

إن لكل لغة من اللغتين: المنطوقة والمكتوبة وظائفها في المجتمع، حتى إن بعض علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع، مثل جودي Goody يرى أن التفكير التحليلي Analytic Thinking يحصل لدى الفرد عند اكتسابه اللغة المكتوبة؛ وذلك أنها تدوين للكلام يمكّن الإنسان من امتلاك الكلمات المفردة ومعالجة نظامها وتطوير صور التفكير المنطقي[1]. ويحدد جودي للغة المكتوبة وظيفتين أساسيتين:

إحداهما: وظيفة التخزين التي تتجاوز بعملية التوصيل الزمان والمكان (فاللغة المكتوبة تعبر بتراث الثقافة حواجز الزمان والمكان إلى أزمنة عدة وأمكنة لا تحصى).

والأخرى: هي نقل اللغة من المجال السمعي إلى المجال البصري، والسماح بسبر أغوار الكلمات والجمل في سياقاتها الأصلية Original Contexts[2].

ويدلنا تاريخ الكتابة على أنها قد أحيطت بأجواء سحرية، حتى إنها بعد أن تجردت من كل صفة سحرية، ظلت محاطة بهالة من الرهبة والاحترام؛ ذلك أن الناس قد احتفظوا بما للنص المكتوب من خرافة[3].

وقد استغل الدين والقانون هذه العاطفة ليفرضا على أذهاننا النص المكتوب، الذي لا يعتريه تحويل أو تبديل، والحرف الذي يتحدى ما

---

(1) Goody, J., The Domestication of the Savage Mind, Cambridge Uni. Press (1977) p. 11

(2) Brown / Yule, op. cit., p. 13

(3) وينبه جون لا ينز إلى أن مصطلح Utterance (وحدة كلامية، قولة) يشير عادة إلى اللغة المحكية (المنطوقة). بينما يشير مصطلح Text (نص) إلى اللغة المدونة (المكتوبة) .

جون لاينز: اللغة والمعنى والسياق، ترجمة د/ عباس صادق الوهاب، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ط أولى ١٩٨٧م، ص٢٥، بيد أن أكثر اللغويين يتوسعون الآن في استخدام مصطلح (النص)، فيطلقونه على المكتوب والمنطوق معًا. فإذا كان النص بمفهومه الأدبي ينبغي له أن يكون تسجيلاً مطبوعًا Printed record فإن تسجيل الحدث التبليغي المنطوق على شريط tape-recording سوف يحافظ على النص كذلك.

يقتضيه العقل. ومازلنا نكرر "هذا مكتوب" أو "لقد كان ذلك مكتوبًا"، كما أننا نتصور المقدور مسجلاً في كتاب كبير تطوى منه في كل يوم صفحة[1]. وتعد الرموز المكتوبة – في حد ذاتها – صلة مهمة في العلاقة التاريخية بين اللغة والثقافة والبناء الاجتماعي؛ ففي الحضارات الكلاسيكية في العالم القديم، تطورت الكتابة من مصادر سحرية كما تطورت من مصادر "اقتصادية وسياسية عقلانية". وارتبطت كذلك ارتباطًا وثيقًا بتطور الصيغ المركزية للحكومة. لقد ساعدت الكلمات المكتوبة الإداريين المختصين من رجال الدين على إعطاء معنى دنيوي للغة الدينية[2].

وبديهي أن الكلام قد سبق الكتابة. وفي العربية كان عصر التدوين بعد أن نظم الشعراء القدماء أشعارهم وتبادلها الرواة والناس على نحو شفهي، ولذلك كانت الصورة المسموعة للغة العربية أسبق من الصورة المكتوبة أو المقروءة. ونذكر هنا نسخ المصحف، وتدوين السيرة النبوية، والرسائل القضائية والديوانية، وتاريخ الفتوحات بعد الحفظ في الصدور والرواية والتناقل الشفهي.

ومن الخطأ – كما يذكر ج. فندريس – أن نظن أن النص المكتوب يُعدّ تمثيلاً دقيقًا للكلام. فلسنا – على عكس ما يتصور كثير من الناس – نكتب كما نتكلم، بل إننا نكتب (أو نحاول أن نكتب) كما يكتب غيرنا. وإن أقل الناس ثقافة يشعرون، بمجرد وضع أيديهم على القلم، بأنهم يستعملون لغة خاصة غير اللغة المتكلمة (=المنطوقة). لها قواعدها واستعمالاتها كما أن لها ميدانها وأهميتها الخاصين بها[3].

ويشرح جون فيرث John Firth هذه القضية مرة أخرى بقوله:

"إن كثيرًا من الناس عندنا يظنون أن كلامهم سوف يكون أفضل إذا ما تكلموا على نحو ما يكتبون، أو على نحو ما تقضي الإنجليزية

---

(1) ج. فندريس: اللغة، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون تاريخ، ص٤٠٤

(2) توماس لوكمان، علم اجتماع اللغة، ص٤٨

(3) ج. فندريس: اللغة، ص٤٠٥

المعيارية Standard English المستخدمة في الكتب. وكثير من الناس يقول كذلك بقانون مخالف: "اكتب كما تتكلم". ومن الواضح أن المرء يكتب بالطبع كما يتكلم. وغالبًا ما يرتبط هذان الشكلان من السلوك اللغوي أحدهما بالآخر، لاسيما إذا استخدما للتعبير عن أغراض متشابهة. ولكن ثمة أشياء "تقال" أفضل مما "تكتب"، كما أن ثمة أشياء أخرى يكون من الأسهل كتابتها ولا يمكن لها أن تشكل جانبًا من المحادثة، وإن أمكن قولها في جماعة لغوية ذكية فحسب"[1].

لقد كانت اللغة المكتوبة حتى عهد قريب تتمتع بميزتين لا توجدان في اللغة المنطوقة:

إحداهما: أنها لغة باقية، أما اللغة المنطوقة فزائلة.

والآخرى: أنها يمكن أن تنتقل عبر مسافات بعيدة، على العكس من اللغة المنطوقة. أما الآن، فإن التسجيلات والأشرطة وغير ذلك مما يسمى بأشكال "الأحاديث المحفوظة". تحقق للغة المنطوقة ميزة الاستمرار والانتقال إلى آماد بعيدة، حتى إن من العلماء من يتساءل الآن عما إذا كان الوقت لم يحن بعد لأن تختفي لغة الكتابة وتحل محلها لغة الحديث. ولكن ليس هناك حتى الآن – كما يقول ماريوباي – أي علامة على احتمال حدوث ذلك قريبًا[2].

ويمكننا الآن القول بأن الكلام يتمتع حقًا بميزات تفتقدها عملية التسجيل الكتابي للحدث التبليغي؛ فالإنسان يمكنه أن يمارس الكلام في الوقت نفسه الذي يباشر فيه عملاً آخر يدويًا، كما يمكنه أن يتحدث في الظلام وفي أماكن تختفي فيها إمكانية الكتابة.

من ناحية أخرى، يمكننا ملاحظة اتساع اللغة المنطوقة لكل مجالات الحياة الإنسانية ونشاطاتها، بما فيها من دقائق وشئون صغيرة يومية. وحري بالإشارة هنا أن الكتابة تظل عاجزة – إلى حد ما – عن أن تكون تمثيلاً دقيقًا متكاملاً للكلام، ففضلاً عن عجز الكتابة عن

---

(1) Firth, J., R., The Tongues of Men and Speech, Oxford Uni. Press, Lonkon (1970) p. 50

(2) ماريوباي: أسس علم اللغة،ترجمة د/ أحمد مختار عمر،عالم الكتب، ط ثانية، القاهرة (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ص٣٩

إظهار صورة أمينة للغة المنطوقة هجائيًا أو فونولوجيا في بعض الأحيان، فإن الكتابة – بأعرافها المستقرة الثابتة – لا تمتلك أدوات تسجيل الجوانب الموضوعية غير اللغوية في الحدث التبليغي أو أثناء عملية التكلم Speaking مثل حركات اليد، وتعبيرات الوجه، وإيماءات الرأس، وحركات الذراعين والرجلين، وإشارات الجسم الدالة لغويًا واجتماعيًا بوجه عام general bodily gesture. ولابد أن تدل اللغة المكتوبة على هذه الجوانب غير اللغوية - إن أرادت - بالوصف اللفظي الصريح، على نحو ما نجد عادة في لغة الرواية والمسرحية (لاحظ هنا إشارات الروائي إلى كيفية حديث الشخصية الروائية، وإشارات الكاتب المسرحي أو إرشاداته للمخرج في كيفية أداء الشخصية للكلام والإلقاء على نحو خاص يرتبط بالحدث والموضوع).

وقد دفعت الفروق السابقة بين الكلام والكتابة لغويًا معاصرًا مثل ماريوباي إلى القول بـ" أن الصورة المكتوبة للغة التي كانت، ولا تزال، وستظل ذات أهمية ضخمة للجنس البشري في نقل المعاني من مكان إلى مكان عبر السنين (على الرغم من تضاؤل قيمتها نسبيًا أمام وسائل القرن العشرين المختلفة في تسجيل أصوات الكلام المنطوق) – لتعد من جهة نظرعلم اللغة مفيدة ومضرة في وقت واحد:

إنها مفيدة بمقدار ما أمدتنا به من مادة لتلك اللغات التي اختفت من عالم الوجود. وهي مضرة لأنها ليست دائمًا أمينة في إعطاء الصورة المنطوقة كما هي، بل ربما كانت خادعة ومضللة. وليس هناك مثال في هذا المقام أدل على التعبير عما نعنيه، من طريقة الهجاء الحديثة للغةالإنجليزية التي تعطي صورة جزئية، وكثيرًا ما تكون مضللة لطريقة النطق اليوم[1].

(1) ماريوباي: أسس علم اللغة، ص٦٠